

# الموت المحتم يكون بعد النهر

## قصة بقاير فاروق واري

الشمس تزحف نحو منتصف السماء ، والقيظ يشتعل ، فعلى الرغم من ان المكان جبلي تنسرب اليه نسيمات صيفية ، الا ان الشمس اليوم تبدو ملتبهة ، وحرارتها تتساقط على الوجوه مثل مسحوق من النحاس الملتهب .

اشجار الزيتون التي تشع ببريق لجبني تبدو امامه متراجعة وهو يتقدم بخطواته المتلغفة بالثقل والانهاك ... بينما جموع الناس الهاربة تبدو امامه كجبات من العرق المتدرجة على وجه بشع مغير .

وبصوت هلامي ينضح برائحة الموت سألته والده :

– كم الساعة الآن يا عبد القادر ؟

– ساعتني واقفة .

( ساعتك واقفة يا عبد القادر . ساعتك واقفة في هذا الوقت الذي أنت فيه أحوج ما تكون الى الساعة ، واقفة يا عبد القادر . عبد القادر .. عبقرى هو الذي سماك هذا الاسم .. كانه كان بهذا الاسم يصنع لك قدرك ) .

– هل تعرف كم كيلو يلزم كي نصل الى النهر ؟

( زرقة باردة تعربد على شفتيه . هذا الرجل يتعجل الموت . ما الذي ينتظره على الضفة الاخرى ؟ صحراء . ليس ثمة الا صحراء على صدرها يتربع موت مجاني سخيف ) .

– كثيرا ...

قالها باقتضاب ، وانشب نظراته في الافق البعيد ينقب فيه عن نهاية الطريق التي بدا امتدادها لا نهائيا .. ثم عادت نظراته المهزومة لتتحط على عجلات العربة .

( تبدو انها سوف تتساقط في أية لحظة ، تلك العجلات المخلخلة . هذه العربة لا تقوى على السير طويلا .. كان والدك كلما عاد من المدينة على ظهر هذه العربة ، يجلس طويلا ، يحرق براغي عربته لتقوى على رحلة اخرى ، لكن هذه المرة ، الرحلة طويلة . طويلا ، والعجلات مخلخلة ) .

في مقدمة العربة ، كان والده يتكور ممسكا بزمام البقل ، وخلفه كانت تقبع الاشياء .. اوان قليلة وفرش وطعام .

الشمس حامية ، والخطوات المتحجرة تدق الطريق الممتد كسرداب لا نهائي ، وعينا عبد القادر ندوران في محجريهما وقد كساهما خوف محموم .

( الخوف ينمو في أعماقك ويهتز مثل غصن يابس ، والموت ذبابة كبيرة تظن بازعاج .. وقد تسقط في أية لحظة ) .

عندما دوت الانفجارات المتلاحقة التي شرخت الضمت ، تطلّس ( عبد القادر ) خلفه للمرة الاخيرة .. وبلمحة خاطفة ، رأى ( يالو ) تنفتحت وتسحق ، فأحس هو الآخر بالانسحاق والتفائل .

كانت القرية تفرق في صحب مدمر ، وافتها البعيد كان يبدو محملا بالماضي والغبار والدخان .

( الخوف الذي يتهطى في أعماقك يمسك الصرخة المتجمدة فسي حلقك ... يالو نموت . نموت .. واقدامك ايها المهزوم تنزلق فسي فراغ عالم غريب . ماذا تبقى لك الآن بعد ان رأيت بينك يتلاشى مع الصخب والدخان والغبار ، وتتلاشى معه الارض والحارات القديمة .. ماذا تبقى لك سوى والد ترك فراش المرض قبل ساعات وجساء هنا ليموت .. هكذا تقول المسحة الغربية التي تطوف على وجهه ) .

تعلقت نظراته المسوخة بعجلات العربة المخلخلة التي أخذت تلعق الاسفلت القديم المشقق وهي تلتف منرافصة ، بينما تبعث منها فرقة أخذ صداها يردد في فراغ الافق مختلطا بصوت حوافر البقل التي أخذت تدق الارض برنابة .

( والدك ايضا مهزوم مثلك ، انه يعاني هزيمتين . فبعد ان سرك ( الصبسية ) مخلفا وراءه الارض والبيت الزاخر بالاناث الجديد الذي اشتراه من مستعمرة « ولهلما » ، وقبر امك القابع في الفجرة القريبة من البيت ، و « صيغة » امك التي وضعها في « سنمسلة » بعد ان بنى بجانبها كومة من الحجارة كعلامة .. بعد ان ترك كل ذلك ، وخرج حاملا معه بندقيته القديمة وبعض « فشكات » تبقت له بعد انهائه الخدمة مع البوليس الانجليزي .. كان والدك يعتقد ان بندقيته القديمة سوف تعيده الى بلده قريبا .. لكن خطواته كانت سريعة الانزلاق ، وكنت أنت ما تزال في شهورك الاولى ، تحملك سواعد انسان هارب كفسار .

وعندما كبرت قليلا ورأيت والدك يبيع بندقيته القديمة ، احسست ان الجرح قد تخثر وفي داخله ما تزال السموم والتقيحات ، وشعرت ان والدك لن يعود الى الارض والبيت واثاث ولهلما الفاخر ، والسنمسلة التي خبئت فيها صيغة امك . تبقت ان والدك قد نسي قبر امك عندما رأيتته يتزوج بثمان البندقية .. كانت زوجته عاقرا .. لكنها كانت رائعة ورقيقة كقريبتها يالو . لقد كانت تشعرك دوما انك ابنها ، حسي كدت تنسى في غمرة نشوتك قبر امك كما نسيه والدك . وها هو والدك الآن يترك خلفه قبرا آخر بضيع ، واقدام بلهاء تنزلق خلفه . لكنسه هذه المرة خرج وهو لا يحمل بيديه بندقية .. انه يحمل فسي جسده بنور الموت .. هكذا تقول المسحة الغربية التي تطوف على وجهه ) .

\*\*\*

العربة تسيير ، والوقت يسير ، وساعة عبد القادر متوقفة ، وألم  
مضن ينقل أقدامه المنهكة .

\*\*\*

الافدام المهزومة اخذت نزاق في شوارع « رام الله » . نبدو  
المدينة هامة كالموت ، فليس ثمة الا الصمت يتمطي في افقها الواسع .  
الصوت الكهل يتسرب بارداً الى اذنيه :  
- الافضل ان لا نمشي من طريق « القدس » ..  
( يا خجلك من القدس أيها المهزوم .. يا خجلك ) .  
بعد برهة عاوده الصوت من جديد :  
- يقولون ان طريق « الطيبة » آمن .. ثم انها اقرب الى النهر .  
ايه .. متى نصل الى النهر لثرتاح .  
( كل همه ان يصل النهر .. انه لا يعرف ان الموت المحتم يكون  
بعد النهر ) .

ومع اشارة من يده ، أكل الرجل حديثه :  
- كل الناس يشون من طريق الطيبة .. فلنسر خلفهم .  
( الآخرون هم الجحيم .. كنت ترددها كثيرا بعد ان قرأتها في  
احد الكتب .. لكنك لم تستطع يوما ان تتخلص من الانقياد وراء  
الآخرين ، وعندما كانت تقوم في القرية « الطوشات » بين العشائر ،  
كنت تقذف بتلقائية ، حجارك ، الى الاتجاه الذي ترى من بجانبك  
يقذف حجارته اليه ) .

\*\*\*

المدينة تتراجع خلفهم ، والشمس بدأت تجنح شيئا فشيئا ،  
وضوؤها اخذ يذبل ، والخطوات المنهكة ما زالت توغل في الطريق .  
المساء الرمادي يتسرب الى المكان محملا بهواء بارد .  
( عندما يجيء الليل ، لن يقدر والدك على تحمل البرد .. قال له  
الطبيب : يا أبو العبد ، ابتعد دائما عن الشمس الحارة والهواء البارد .  
وكان دائما يقول : ربك يسترها . وها هو اليوم يصطلي بهجيسر  
الشمس ويفرق في برودة الهواء .. انه الآن يموت تحت الشمس والبرد  
.. يموت ، تقول المسحة الغربية التي تطوف على وجهه ) .  
الليل غرابي حالك ، والكتل البشرية اشباح تتحرك في العتمة ،  
نكهش لشدة البرد .  
نفخ عبد القادر في كفيه ، وانكمش ، فأحس ببثور من الخدر اللذيذ  
تنتشر في أوصاله .

عجلات العربة تزقزق بصوت مزعج وهي ننحدر في الطريق الضيق  
المنعرج بين الجبال . الوقت يسير متشابلا كالخطوات المنهكة :  
- اعتقد اننا اصبحنا قريبين من النهر . المهم ان نتجاوز النهر  
وبعدها نستطيع ان نستنشق الحياة .

جاءه الصوت باردا كالليل ، بينما صوت الزقزقة يتفاهم بتحد  
وعناد . والعجلات ما زالت تتدرج نازلة الطريق .

\*\*\*

الليل يتمطي بنكاسل في الهزيع الاخير منه ، والعربة تنحدر الى  
الافوار . العجلات تتمايل وتترافص في سيرها ، والعربة تهتز ، ويهتز  
معها جسد أبو العبد المتكور فوقها .  
( لو سير هذه العربة بضع خطوات اخرى لسقطت عجلاتها  
وبدحرجت بعيدا نارية وراءها جثة يموت .. لذلك يجب .. ) .  
- يجب اصلاحها .. يجب ..  
- ها .. تحدثني ؟  
أدرك عبد القادر ان افكاره المتزاحمة قد اندلقت نلغانيا على  
لسانه :

- اقول : ان عجلات العربة تتمايل وتندثر بالسقوط .. وبعد ان  
نعبر النهر كل شيء يهون .. لو بقينا هنا سوف ننفصل عن الناس  
ونتاخر في الوصول .  
رد عبد القادر باصرار :

- لا يهمني كل ذلك .. يجب اصلاح العربة .  
- حسنا ، ولكنني لن انتظر . ساسير مع الناس ، وسوف انتظر  
بعد النهر .

( يصجل الوصول الى النهر هذا المهزوم .. آه لسو يستطيع ان  
يدرك .. لو يستطيع ان يدرك ان الموت المحتم يكون بعد النهر ) .  
بعد قليل ، ضم عبد القادر جفنيه الى بعضهما وتطلع . كان والده  
يذوب مع الجموع النازحة التي بدت على البعد وكأنها سحابة سوداء  
كثيفة اخذت تنطمس شيئا فشيئا .

\*\*\*

وقف عبد القادر وحيدا ، والعربة بجانبه مائلة العجلات ..  
ولوهلة ، أحس غريبا ، مسلوخا عن كل شيء .  
كان الليل قد بدأ يتشقق ، واخذت طراوة الصباح تلمح وجهه  
الباهت .. ثم امتدت اصابعه المثلوجة الى الكيس الجلدي الصغير  
المعلق على بطن العربة ، واخرج الادوات الحديدية التي بدت عتيقة  
مسودة .

وبعزم ، بدأ عبد القادر يحلل عجلات العربة ، ثم اخذ يعيد تركيبها  
من جديد . كان يحس بنشوة المنتصر وهو يرى العجلات تنتصب بقوة .  
ولم يكن ، في غمرة انشغاله ، يحس بالوقت الذي يسير ، بينما هو  
يتمرغ على التراب الرطب الندي .

وقف أخيرا . كانت العربة تستوي امامه مكابرة ، وشعر للمرة  
الاولى ان عربتهم قوية ومتينة ، وانها تقوى على رحلة الصعود .  
نظر خلفه ، كانت الطريق التي نزلها قبل قليل تبدو وافقة كشجرة  
عارية .

( ولكنك الآن أعادت بناء العربة .. عربتك الآن قوية ومتينة ..  
سوف تقوى على قهر الطريق ) .

وأحس بدفقة من الدم تتزاحم الى وجهه فتكسبه القسا مشعا .  
وبلحظة أحس انه ينفصل عن ماضيه المشوه .

( ما عليك الآن الا ان تعسيء ساعتك وتضبظها .. ان رحلتك  
طويلة .. طويلة ) .

كان الليل يبدو مسفوفا تحت شعاع الشمس الذي أخذ ينسل  
ببطء .

امتدت من كف عبد القادر اصبعان عملاقان ، فعبا ساعته وضبطها ،  
ثم امسك بزمام البقل والتف به الى الورا ، فالتفت العجلات على  
عرض الشارع ثم سارت مستوية بعد ان غيرت وجهتها .

فجأة ، تذكر والده الذي تركه وراءه ...  
( لا شك انه الآن قد وصل الى ما بعد النهر .. انه الآن يموت ..  
يموت .. ان الموت المحتم يكون بعد النهر ) .

فاروق وادي

( الجامعة الاردنية )

عمان - الاردن

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء ( المغرب )

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤ شارع الملكي - الاحباس

تلفون ٦٢٢٠٩